

باب التوفيق.. لغز العمارة الإسلامية بمدينة القاهرة

Bab Al - Tawfik .. The puzzle of Islamic architecture in Cairo

د. رضوى زكي

باحثة أكاديمية في تاريخ العمارة والفن الإسلامي.

تاريخ القبول: 2018/07/15

تاريخ الاستلام: 2018/05/03

ملخص:

يعد باب التوفيق أحد أبواب القاهرة في سورها الفاطمي الثاني الذي يحدها من جهة الشرق لتحصين المدينة ضد الغزوات الخارجية، وقد اكتشف الباب في عام 1957. ولم يُذكر باب التوفيق في المصادر العربية التاريخية باسمه الذي يشير إليه النقش الكتابي المدون أعلاه؛ بل أظهرت الدراسات الأثرية أن الباب عُرف باسم "باب البرقية"، والمصادفة أن هناك ثلاثة أبواب تحمل اسم "البرقية" في أسوار القاهرة التي شُيّدت إبان العصر الفاطمي والأيوبي، وهو ما زاد من صعوبة التأكد من موضع باب التوفيق، فضلاً عن الجرم بأن أحد الأبواب الثلاثة هو باب التوفيق، والذي ظل مثار جدلاً كبيراً لوقت قريب. وفي تلك الورقة البحثية نستدل وفقاً لآراء الباحثين على موضع باب التوفيق، ونلقي الضوء على تكوينه المعماري، ونبرز استخدام كتل حجرية فرعونية في عمارته.

الكلمات الدالة

باب البرقية- باب التوفيق - السور الشرقي - بدر الجمالي - جوهر الصقلي - أحجار فرعونية

Abstract

Bab al-Tawfiq is one of the gates of Islamic Cairo, in the second eastern wall, used as a part of the defensive system of the city, and discovered in 1957. The name of the gate did not mentioned in the Arabic historical sources, although it is written above the gate, while the archaeological studies have shown that the gate known as Bab al-Barqiyya. By coincidence, there are three gates known as Bab al-Barqiyya in the walls of Cairo, built during the Fatimid and Ayyubid periods. Therefore, it was difficult to determine the position of Bab al-Tawfiq, and to state which one of the three gates is the authentic Bab al-Tawfiq, so it remained a major debate until recent time. In this paper, we conclude from the opinions of the researchers the location of Bab al-Tawfiq, we would also shed light on its architectural composition and the use of Pharaonic blocks in its masonry.

Key Words

Bab al-Barqiyya - Bab al-Tawfiq – Eastern Wall - Badr al-Gamali- Gawhar El-Sakali – Pharaonic Blocks

تمهيد: أسوار مدينة القاهرة

شاع عند بناء الحواضر الإسلامية تسوير المدن بغرض الدفاع عنها وحفظ أمن أهلها وقاطنيها، ولم تخرج مدينة القاهرة عن تلك القاعدة؛ بل كان حظيت المدينة بثلاثة أسوار بنيت في عصور مختلفة لحمايتها. تزامن إنشاء مدينة القاهرة على يد القائد الفاطمي جوهر الصقلي مع تشييد سور يحيط بالمدينة (359هـ/970م) ويعزلها عن عامة أهل مصر حين كانت مدينة خاصة لسكن الحكام الفاطميين. شُيد هذا السور من الطوب اللبن الكبير وهو السور الأول ولم يبق منه اليوم آثارًا تُذكر. أعيد بناء تلك الأسوار وصيانتها مرة أخرى خلال العصر الفاطمي على يد الوزير بدر الجمالي ما بين أعوام 480-485هـ/1087-1092م ببناء سور ثاني لمدينة القاهرة، خارج السور القديم الأصلي وليس على أساسه لاتساع المدينة وتمدد عمرانها وعمارتها، وكانت مادة بناء السور من اللبن للجدران، ومن حجر منحوت للأبواب والأبراج. وما يزال جانبًا كبيرًا من تلك الأسوار والبوابات الفاطمية قائمًا، وبخاصة الأسوار الشمالية والشرقية، والأبواب التي تتخللها كبابي النصر والفتوح. بينما ابتداء صلاح الدين يوسف بن أيوب في عمارة السور الثالث للقاهرة بعدما تسلطن عليها وقضى على حكم الفاطميين للديار المصرية سنة 572هـ/1177-1178م، وندب للعمل في السور وزيره بهاء الدين قراقوش الأسدي، فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن، وبدلاً من أن يحيط به القاهرة وحدها؛ قرر أن يطوق به قلعة الجبل التي شرع في تشييدها والقاهرة والفسطاط، وأطلق على هذا السور الثالث اسم السور الصلاحي أو السور القراقوشي⁽¹⁾. وقد تخللت تلك الأسوار الثلاثة مجموعة من الأبواب في جوانب أسوار القاهرة، منها ما اندثر، ومنها ما ظل قائمًا حتى اليوم، ومنها ما ظل لغزًا معماريًا واختلف الباحثون في شأنه مثل باب التوفيق.

باب التوفيق: إشكالية التسمية والموقع

يظل تحديد موقع واسم باب التوفيق مثار جدال بين الباحثين والآثريين لعدة اعتبارات؛ أولها أن الباب لم يُعرف في المصادر التاريخية المعاصرة باسمه الحقيقي المدون في النقش الكتابي أعلى بوابته، والذي يشير بكل وضوح إلى اسم

¹ ك. أ. س. كريزويل، العمارة الإسلامية في مصر: المجلد الأول الإخشيدون والفاطميون (939-1171م)، ترجمة عبد الوهاب غلوب، مراجعة محمد حمزة الحداد (القاهرة، 2004)، 25-37، 169-205؛ عبد الرحمن زكي، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول (القاهرة، 1950)، 121-117؛ عبد الرحمن فهمي، "أسوار القاهرة وأبوابها"، القاهرة: تاريخها، فنونها، آثاره (القاهرة، 1970)، تحرير حسن الباشا وآخرون، 466-478.

الباب ومنشأه وتاريخ إنشائه، فباب التوفيق في المصادر والمراجع العربية يُطلق عليه اسم "باب البرقية"، وهنا تكمن الإشكالية الثانية؛ فهناك وفقاً لأغلب آراء الباحثين ثلاثة أبواب تحمل اسم باب البرقية، ولكل باب موضع مختلف. ويقع باب التوفيق المعروف بباب البرقية في شارع بلوكات السواري، المتفرع من شارع جوهر القائد بمنطقة الدارسة، التابعة لمنطقة الأزهر إلى الشرق من مباني الجامعة الأزهرية بحوالي 80م، ولم يُسجل باب التوفيق كأثر باسمه في عداد الآثار الإسلامية؛ وإنما تم تسجيله باعتباره باب البرقية أثر رقم 614⁽¹⁾. وحري بنا قبل حين نتطرق لمسمى وتاريخ باب التوفيق أن نتبع تاريخ الأبواب التي عُرفت باسم باب البرقية.

عندما بنى جوهر سور القاهرة كما أسلفنا جعل له 8 أبواب، وأنشأ في السور الشرقي بابان كان أحدهما وأهمها باب البرقية، والبرقية هم فصيلة من الجنود الذين ساهموا في فتح مصر على يد جوهر الصقلي من مدينة برقة في ليبيا، وسكنوا عند الباب فعرف بهم وعرفت حارة البرقية⁽²⁾. واللافت للنظر أن الرحالة الفارسي ناصر خسرو لما زار القاهرة عام 439هـ/1047م لم يشر إليه ضمن أبواب القاهرة، نظراً لأن السور كان قد تهدم في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (427-487هـ/1036-1094م)، وأشار أن القاهرة لم يكن لها سور محصن، أبنيتها الداخلية أعلى من بقايا أسوارها المحيطة بها⁽³⁾.

وقد أشار المؤرخ والجغرافي مُحمَّد رمزي إلى باب البرقية الذي أنشأه جوهر الصقلي عند دخوله مصر، وفقاً لما تناوله المقرئ في خطه عند الحديث عن أبواب القاهرة فقال: "ومن جهتها الشرقية ثلاثة أبواب متفرقة: أحدهما يعرف الآن بباب البرقية، والآخر بالباب الجديد، والآخر بالباب المحروق .. ولم تكن هذه الأبواب على ما هي عليه الآن، ولا في مكانها عندما وضعها جوهر"⁽⁴⁾. وفي موضع آخر أشار إلى بابان بالجهة الشرقية من أسوار القاهرة من عمل جوهر الصقلي قائلاً: "كان في الجهة الشرقية من القاهرة، وهي الجهة التي يسلك

¹ دليل الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة (الإصدار الأول، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار: المجلس الأعلى للآثار، 2000)، ص 45؛ سامي مُحمَّد نوار، "دراسة تحليلية لسور القاهرة بالجزء الممتد من باب النصر إلى باب البرقية"، دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، ج1، (القاهرة، 2000)، 188.

² ابن ميسر، تاج الدين مُحمَّد بن علي (ت 667هـ/1278م)، المنتقى من أخبار مصر، انتقاها تقي الدين أحمد بن علي المقرئ، أئمن فؤاد تحقيق أئمن فؤاد سيد (القاهرة، 1981)، 139؛ عباس الطرابيلي، خطط الطرابيلي: أحياء القاهرة المحروسة (القاهرة، 2003)، 294.

³ ناصر خسرو علوي (ت 481هـ/1088م)، سفرنامه، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (القاهرة، 1993)، 106.

⁴ المقرئ، تقي الدين أحمد مُحمَّد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ/1441-1442م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف، بالخطط المقرئية، تحقيق أئمن فؤاد سيد، (لندن، 2003)، ج2، 276.

منها إلى الجبل بابان: أحدهما يعرف الآن: بالباب المحروق، والآخر يقال له: باب البرقية، وموضعهما دون مكانهما إلى الآن ويقال لهذه الزيادة من هذه الجهة: بين السورين، وأحد البابين القديمين موجود إلى الآن اسكفته^{(1)،(2)}.

ومن خلال ما ذكره المقرئ سلفاً في غير موضع من خطته لمدينة القاهرة نستطيع الجزم أن أول الأبواب التي عُرفت باسم باب البرقية بسور القاهرة الشرقي كانت من أعمال جوهر الصقلي، ولا تمدنا المصادر المملوكية بكثير من المعلومات حول هذا الباب سوى موضعه. وفي زمن الحملة الفرنسية (1798-1801م) كان باب البرقية الذي أنشأه جوهر من اللبن مع السور الشرقي الأول يقع إلى الشرق من جامع عبد الرحمن كتبخا المعروف بجامع الغريب⁽³⁾ بحوالي 20 متر، ثم جدده عبد الرحمن كتبخا عام 1168م/1754م، ولذلك السبب صار يُعرف باب الغريب. وقد سُمي الباب كذلك باسم "باب الخلاء" لأنه كان يفضي إلى خارج المدينة جهة الصحراء وفقاً للجبرتي، وقد سد الفرنسيون هذا الباب عام 1215هـ/1800 بعد ثورة القاهرة الثانية حتى يحكموا سيطرتهم على منافذ ومخارج القاهرة⁽⁴⁾. وقد ظل باب البرقية الفاطمي الأول قائماً حتى عام 1934م وكان مسجلاً كأثر برقم 551 من قبل لجنة حفظ الآثار العربية⁽⁵⁾، وكانت مصلحة التنظيم قد طلبت من لجنة حفظ الآثار العربية فك

¹ الاسكفة هي عتبة الباب التي تعضده. وهي هنا كتف الباب أو جانباً من إطاره. انظر: ليلي إبراهيم، محمد محمد الأمين، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (648-923هـ) (1250-1517م) (القاهرة، 1990)، 81.

² المقرئ، الخطط، ج2، 213؛

Stéphane Pradines et Johannes Den Heijer, " Bâb al-Tawfiq: une porte du Caire fatimide oubliée par l'histoire", *Le Muséon* 121, Peeters, Louvain, 2008, 150.

³ جامع الغريب أثر رقم 488، وهو مسجد الأمير عبد الرحمن كتبخا ويقع بمنطقة الدرب الأحمر خلف جامع الأزهر بداخل حرم جامعة الأزهر. عُرف الجامع بالغريب نسبة إلى الشيخ الذي يعتقد الناس في صلاحه؛ "سيدي محمد الغريب" صاحب الضريح المعروف به هناك، وكان صاحب كرامات وخوارق رحمه الله. انظر دليل الآثار الإسلامية، ص 245؛ علي مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، (القاهرة، 1305-1306هـ/1887-1888م)، ج2، 84.

⁴ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت 1237هـ/182م)، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (القاهرة، 1988)، ج2، 7؛ ج3، 42، 156، 259، 426؛ علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، منى زهير الشايب، (القاهرة، 1987-1992)، ج 10، 181.

⁵ محمد أبو العمام، "أسوار مدينة القاهرة وخطتها: سور جوهر سنة 358هـ/969م"، حوليات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، عدد 26 (2002)، 23؛

هذا الباب ونقله إلى مكان آخر من أجل الشروع في إنشاء الجامعة الأزهرية، وقد أستقر الرأي بعدها على هدم الباب المذكور عام 1936م وحل محله مباني الجامعة الأزهرية الجديدة⁽¹⁾.

ولما قام بدر الجمالي بإنشاء السور الشرقي الثاني موازيًا للأسوار والأبواب الأولى التي بناها القائد الفاطمي جوهر الصقلي، أنشأ الأمير بدر الجمالي في الجزء الشمالي من السور الشرقي بابًا عرف أيضًا باسم "باب البرقية"، أسوة بالباب الذي يقابله في السور الأول⁽²⁾، وكان السور الشرقي يتجه إلى حيث موقع باب البرقية الأول، ثم يمتد إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحري عند برج الظفر، وليس لهذا السور أي أثر اليوم⁽³⁾.

وقد شُيد صلاح الدين السور الشرقي من باب الوزير إلى درب المحروق، ويمتد نحو الشمال إلى برج الظفر، وبه الباب الجديد وباب البرقية وباب القراطين. وقد أشار القلقشندي إلى باب البرقية الأيوبي في معرض حديثه عن أبواب القاهرة كالتالي: "ولما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية وانتدب لعمارة أسوار القاهرة ومصر قراقوش الأسدي فبنى سورًا... وجعل فيه عدة أبواب منها باب البرقية"⁽⁴⁾. وتجدر الإشارة أن أجزاء كثيرة من السور الشرقي لا تزال باقية إلى اليوم، فيما تحتفي أجزاء أخرى منه تحت كيمان التراب كما أشار عبد الرحمن زكي⁽⁵⁾، لأن صلاح الدين الأيوبي كان قد حفر خندقًا تجاه السور الشرقي الأيوبي، وقد ملئ الخندق بمرور الوقت بالمخلفات وأنقاض المباني. وقد ظل باب البرقية الثالث مخفيًا مدة طويلة تحت الأنقاض المذكورة إلى أن اكتشفه الأثري المصري "علي بمجت" إبان أعمال ترميمات لجنة حفظ الآثار العربية عام 1942-1943.

Nicholas Warner, "The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls of Cairo: Missing Fragments", *AnIsl* 33 (1999), 286.

¹ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/ 1469-1470م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق محمد رمزي (القاهرة، 1965)، ج 9، 205، حاشية 2.

² أحمد عبد الرازق، العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي (21-923هـ/ 641-1517م) (القاهرة، 2009)، 141.

³ كريزويل، العمارة الإسلامية في مصر، 27.

⁴ القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي (ت 821هـ/ 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، (القاهرة، 1913)، ج 3، 354.

⁵ عبد الرحمن زكي، "أسوار القاهرة وأبوإمام من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة المجلة، العدد 51 (مارس 1961م)، 40-41؛ رمزي، النجوم الزاهرة، ج 9، 205، حاشية 2.

ويُرجح أن الباب هُدم بسبب أعمال التنظيم بمنطقة الأزهر⁽¹⁾، بينما يرى مُجد رمزي أن الباب لا يزال قائماً، لكنه مطموراً في التراب تحت التل الواقع على يمين الداخل الموصل إلى شارع الغريب، على بعد 120 متر شرقي مباني الجامعة الزهرية الجديدة⁽²⁾.

ويصعب تحديد موضع باب البرقية في السور الأول والثاني والثالث من كتابات المقرئ، فالقسم الذي يخصه المؤرخ لبوابات القاهرة يتوقف عند ذكر اسم باب البرقية دون إيراد أية تفاصيل ولا تحديد لموضع الباب كما أشار علي مبارك في خططه التوفيقية⁽³⁾. ومن اللافت للنظر أيضاً أن المقرئ لم يذكر باب البرقية الثاني أو باب التوفيق من بين منشآت بدر الجمالي ضمن سائر المباني التي شيدها وتحمل اسمه؛ على الرغم من وجود نص إنشائي أعلى باب التوفيق يفيد بتاريخ بنائه عام 480هـ/1087م على يد بدر الجمالي، ويفيد بوجود اسم الباب. كما عُرف باب التوفيق باسم باب الغريب الذي ارتبط بباب البرقية القديم. ويرجح أبن فؤاد سيد في تحقيقه لكتاب الخطط أن المقرئ غالباً لم يذكر باب البرقية لأن السور الشرقي قد اندثر قبل عصر المقرئ، وتم إعادة ترميمه وصيانته إبان الحملة الفرنسية على مصر⁽⁴⁾.

ومما سبق يتضح وجود ثلاثة أبواب تسمى "باب البرقية"، لذا اختلف الباحثون في شأن تسمية وتأريخ باب التوفيق المعروف باسم باب البرقية؛ حيث هدم الباب الذي شيده جوهر الصقلي وجدده عبد الرحمن كتنخدا؛ ودفن الباب الثالث الذي يُنسب لصلاح الدين الأيوبي تحت الكيمان الترابية بمنطقة الأزهر. ولم يبق اليوم سوى "باب التوفيق" أو باب البرقية الثاني وهو من أعمال بدر الجمالي. وقد كان الباب مطموراً أسفل مستوى الشارع مثل الأبواب الأخرى الموجودة بالسور الشرقي لمدينة القاهرة، ولما كانت السيول أحياناً ما تضرب العاصمة، كان العامة من أهل مصر يلقون الأتربة وأنقاض المباني خلف السور الشرقي، فأخذ مستوى الأرض في الارتفاع وصارت بعدها تلال البرقية الملجأ الرئيسي لأهل القاهرة لألقاء مخلفاتهم، إلى أن اختفى السور الشرقي وأبوابه تدريجياً، وأضحى في عداد الآثار المندثرة. ولما كانت تلك التلال تضيق الخناق على مدينة القاهرة جهة الشرق، بالتزامن مع أعمال شق طريق صلاح سالم وشارع المنصورة عام 1957م، شرعت مصلحة التنظيم في إزالة بعض

¹ زكي، أسوار القاهرة وأبوابها، ص 41؛ نور، دراسة تحليلية لسور القاهرة، 188.

² رمزي، النجوم الزاهرة، ج 9، 205، حاشية 2.

³ مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ج 2، 84.

⁴ المقرئ، الخطط، ج 2، 278، حاشية 1؛ 282-284، حاشية 4.

تلك التلال كي يمتد العمران عبرها نحو الجبانة الشرقية، فظهر السور الشرقي و"باب التوفيق" شرقي مباني الجامعة الأزهرية⁽¹⁾.

التكوين المعماري لباب التوفيق

يتألف التكوين المعماري لباب التوفيق من باب ضحل مبني بالحجر المنحوت والآجر، ويبلغ ارتفاعه 6م، ويقع الباب حاليًا أسفل مستوى الطريق العام. ولا يشتمل الباب على أبراج تكتنف مدخله مثل باب النصر وباب الفتوح؛ بل يتألف من فتحة باب معقودة بعقد مدبب تؤدي إلى ممر مقبى، ويتقدم عقد الباب من الخارج عقد آخر أكبر منه ويرتفع عنه حوالي 1.5م، ويفصل بين العقدتين فتحة تستخدم في صب الماء أو الزيت الساخن على من يشرع في اختراق الباب. ويوجد على العقد الداخلي لوحة رخامية بيضاء مكسورة لقطعتين عرضها 292سم وارتفاعها 40 سم، محفور عليها نقش كتابي مكون من خمسة أسطر بالخط الكوفي المورق ويؤرخ لتأسيس الباب⁽²⁾. ويتضح من النقش الكتابي اسم باب التوفيق الذي عُرف باسم باب البرقية، كما عرف باب الفتوح بهذا الاسم على الرغم أن اللوحة المسجلة أعلاه تشير إليه باعتباره "باب الإقبال"، أما باب النصر فاسمه وفقًا للنقش الكتابي الذي يحمله "باب العز"⁽³⁾.

ونطالع النص المدون على باب التوفيق وجاء فيه: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، عَلِيٌّ وَلِيُّ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى الْأئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَجْمَعِينَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ بِعِزِّ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْجَبَّارِ يَحَاطُ الْإِسْلَامُ وَتَنْشَأُ الْمَعَاقِلُ وَالْأَسْوَارُ. رَأَى إِنْشَاءَ هَذَا؛

¹ عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، (القاهرة، 1960)، 102؛ نوار، دراسة تحليلية لسور القاهرة، 188-190. انظر أيضًا: فريد شافعي، "قاهرة المعز كانت حصناً لا مدينة"، مجلة منبر الإسلام، العدد (9)، يناير 1965م، 119-121؛

Warner, *The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls*, 284.

² نوار، دراسة تحليلية لسور القاهرة، 189. وقد قام جاستون فييت بنشر تلك النقوش لأول مرة انظر:

Gaston Wiet, "A new Fatimid Cairo inscription", in *Asian Journal*, (1961), 13-20; Warner, *The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls*, 287.

³ Warner, *The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls*, 288.

باب التوفيق والسور المحيط بالمعزية القاهرة المحروسة حماها الله فتي مولانا وسيدنا معد أي تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الائمة الطاهرين وابنائهم الأكرمين، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أي النجم بدر المستنصري، عضد الله به الدين، ومنع بطول بقائه، أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته، الذى حصّن الله بحسن تدبيره الدولة والأنام وشمل صلاحه الخاص والعام، ابتغاء ثواب الله ورضوانه وطلب فضله وإحسانه وصيانة كرسي الخلافة وازدلالاً الى الله بحياطة الكافة. وبدئ بعمله في محرم سنة ثمانين وأربع مائه للهجرة الحنيفة⁽¹⁾.

الكتل الحجرية المصرية القديمة المكتشفة بباب التوفيق

إبان أعمال الهدم والتنظيم بمنطقة الأزهر كشف الأثري حسن عبد الوهاب المشرف على أعمال الحفر بالبواب عن وجود مجموعة من الكتل الحجرية الجرانيتية الفرعونية الضخمة بأرضية باب التوفيق، استُخدمت كمشي للوصول للبواب الذي يبلغ طوله حوالي 9.2م، وكان دور تلك الكتل الحجرية تدعيم وتقوية البناء، حيث استُخدمت في تبليط مشي باب التوفيق، ثم ردمت تلك الكتل الحجرية مع البواب مرة أخرى لفترة طويلة⁽²⁾. وقد قام المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة عامي 2001-2002م بأعمال حفائر لكشف عن سور القاهرة الشرقي الذي يعود للعصر الفاطمي والأيوبي، وأسفرت تلك الحفائر عن إعادة اكتشاف باب التوفيق وأرضيته المستخدم بها قطع ضخمة من الجرانيت تحمل نقوشاً هيروغليفية، ومن ثم عكف بعض الباحثين على دراسة ونشر عدد اثني عشر كتلة حجرية فرعونية المكتشفة بأرضيات باب التوفيق، وهي مصنوعة من الكوارتزيت والجرانيت - وهي الأحجار الشديدة الصلابة وقوية التحمل - وعدد قليل منها من الحجر الجيري. ويمكن تأريخ تلك الكتل الحجرية لعصر الدولة الوسطى والدولة الحديثة وفقاً لنقوش الهيروغليفية المدونة عليها، كما يوجد خمسة كتل حجرية لا يمكن نسبتها على وجه الدقة لعصر دولة بعينها من تاريخ مصر القديم⁽³⁾.

¹ نوار، دراسة تحليلية لسور القاهرة، 189.

² Stéphane Pradines et Johannes Den Heijer, *Bâb al-Tawfiq*, 145.

³ Lilian Postel, Isabelle Régen, "Annales Héliopolitaines et Fragments de Sésostri I Réemployés dans la Porte de Bab al-Tawfiq au Caire," *BIFAO* 105 (2005), 229-293; Lilian Postel, Isabelle Régen, "Réemplois Pharaoniques à Bâb al-Tawfiq", *BIFAO* 106 (2006), 193-218.

وتشير بعض النقوش الهيروغليفية المدونة على تلك الكتل الحجرية إلى اسم الإله "آتوم"، رب عين مدينة شمس القديمة، مما يؤكد نسبتها إلى مدينة عين شمس، بينما تسجل بعض النقوش الهيروغليفية على كتل حجرية أخرى إلى الإله "بتاح" رب مدينة منف القديمة، فيكون مصدر بعض الكتل الحجرية في الغالب مدينة منف أو عين شمس. وقد جرى نقل وتوظيف تلك العناصر المعمارية الحجرية إبان العصر الفاطمي على يد الوزير بدر الجمالي مثل بعض الكتل الحجرية الفرعونية التي لازالت بمواضعها بالسور الشمالي الفاطمي من أعمال بدر الجمالي، وبخاصة بين الممر السري الداخلي الواصل بين بابي الفتوح والنصر⁽¹⁾.

ونجد من أبرز العناصر المصرية القديمة المستخدمة بممشى باب التوفيق كتلة من حجر الجرانيت تعود لعصر الدولة الوسطى وفقاً للنقوش الهيروغليفية المدونة عليها، وكتلة أخرى كبيرة من حجر الكوارتزيت مؤرخة كذلك بعصر الدولة الوسطى. وقد استعملت تلك الكتلة بصورة معكوسة وفقاً للموضع الذي تشغله حالياً في أرضية باب التوفيق، وتشغل النقوش الهيروغليفية المدونة عليها حيزاً كبيراً؛ حيث تشير إلى اسم الملك المصري "سنوسرت الأول"، أبرز ملوك الأسرة الثانية عشر من عصر الدولة الوسطى في تاريخ مصر القديمة، فضلاً عن بعض أرباب مدينة عين شمس. وتوجد كتلة حجرية مثيلة يُرجح أنها كانت جزء من باب أو عتب مصري، وتحمل نقوش هيروغليفية تدون أيضاً أسماء جانب من آلهة عين شمس واسم الملك "سنوسرت الأول". وقد أعيد توظيف دعامة مصنوعة من الجرانيت كذلك تسجل منظر ونقش بالخط الهيروغليفي يشير للملك "تحتمس الرابع" والإله آمون، وجزء من عتب من الكوارتزيت يحمل اسم الملك "رمسيس الثاني" من عصر الدولة الحديثة⁽²⁾.

وبصفة عامة شاع استخدام الآثار المصرية القديمة في بناء العمائر والمنشآت في مصر الإسلامية منذ العصر الفاطمي، حين دخل في بناء أسوار القاهرة وأبوابها في العصر الفاطمي بعض عناصر معمارية وآثار منقولة من معابد وآثار فرعونية، مجلوبة من المناطق المجاورة لمدينة القاهرة مثل عين شمس ومنف، فضلاً عما تم نقله من مناطق أخرى. وقد ظل هذا الاتجاه قائماً في العصرين الأيوبي والمملوكي، وقد كانت الكتل الحجرية المنقوشة بالخط الهيروغليفي أو المزينة بمنابر من مصر القديمة المنقولة من منشآت مهدمة، والتي تم الاستعانة بها لاستخدامها

¹ Postel, Régén, *Annales Héliopolitaines*, 230; Stéphane Pradines, Osama Talaat, "Les Fortifications Fatimides du Caire: Bab al-Tawfiq et L'enceinte en Briques crues de Badr al-Gamali", *AnIsl* 41 (2007), 239-241.

² Postel, Régén, *Annales Héliopolitaines*, 232, 276; *Réemplois Pharaoniques*, 194-196, 199-202.

لتدعيم بناء أسوار وبوابات مدينة القاهرة الفاطمية والأيوبية، من أهم العناصر الأثرية الفرعونية التي دخلت في بناء عمائر القاهرة الإسلامية⁽¹⁾.

الخاتمة

قام بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بإعادة بناء سور لتحصين مدينة القاهرة، وقد وسع من رقعة السور الشرقي وجعل به أبواباً تستخدم للخروج والدخول جهة شرق القاهرة وللدفاع عن المدينة من حدها الشرقي. وقد أطلق بدر الجمالي على أحد أبوابه بالسور الشرقي اسم "باب التوفيق"، وسجل على بابه النص التأسيسي الذي يفيد بتاريخ بناءه وتسميته. ونظرًا لأن بعض أبواب القاهرة كانت تُعرف بأسماء مخالفة لما أطلق عليها وقت تشييدها مثل باب الفتوح وباب النصر؛ فلم يخالف باب التوفيق تلك القاعدة، وعُرف باسم باب البرقية في المصادر التاريخية.

ولما كان هناك ثلاثة أبواب تحمل اسم باب البرقية في أسوار القاهرة الثلاثة، وطمرت تلك الأبواب أسفل مستوى الأرض في حي الدراسة على مر العصور الإسلامية المتعاقبة؛ صار الكشف عن باب التوفيق لغزًا معماريًا لم يتم حسمه قبل خمسينات القرن الماضي إبان أعمال التنظيم والهدم بالقرب من جامعة الأزهر، على يد الأثري حسن عبد الوهاب أولاً، ثم بالدراسة المستفيضة بفضل أعمال الحفائر التي قام بها المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، الأمر الذي أمكن معه دراسة التكوين المعماري لباب التوفيق الذي يختلف عن أبواب القاهرة التي شيدها بدر الجمالي، والكشف عن استخدام مجموعة من الكتل الحجرية الفرعونية في أرضياته، وهو الأمر الذي يشير إلى استعمال عناصر معمارية فرعونية في منشآت القاهرة الإسلامية، وبأسوار وبوابات المدينة الفاطمية على وجه الخصوص.

المصادر والمراجع

1- المصادر العربية

- ناصر خسرو علوي (ت 481هـ / 1088م)، سفرنامه، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (القاهرة، 1993).

¹ George Daressy, "Inscriptions Hieroglyphiques Trouvees dans le Caire", *ASAE* 4, (1903), 101; Jean-Pierre Corteggiani, "The Site from the Primeval Era to the Arab Invasions", in A. Raymond (ed.), *The Glory of Cairo: An Illustrated History* (Cairo, 2002), 15.

- ابن ميسر، تاج الدين مُحمَّد بن علي (ت 667هـ/1278م)، **المنتقى من أخبار مصر**، انتقاءه تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، أيمن فؤاد تحقيق أيمن فؤاد سيد (القاهرة، 1981).
- القلقشندي، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي (ت 821هـ/1418م)، **صبح الأعشى في صناعة الانشاء**، 14 جزء، (القاهرة، 1913).
- المقرئزي، تقي الدين أحمد مُحمَّد بن علي بن عبد القادر (ت 845هـ/1441-1442م)، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف**، بالخط المرقريزي، 4 أجزاء، تحقيق أيمن فؤاد سيد، (لندن، 2003).
- ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ/1469-1470م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، 16 جزء، تحقيق مُحمَّد رمزي وآخرون (القاهرة، 1965).
- علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، منى زهير الشايب، (القاهرة، 1987-1994).
- الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن (ت 1237هـ/1882م)، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، 4 أجزاء، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (القاهرة، 1988).
- علي مبارك (ت 1311هـ/1893م)، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة**، 20 جزء، (القاهرة، 1305-1306هـ/1887-1888م).

2- المراجع العربية

- أحمد عبد الرازق، **العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي (21-923هـ/641-1517م)** (القاهرة، 2009).
- حسن الباشا وآخرون، **القاهرة: تاريخها، فنونها، آثاره** (القاهرة، 1970).
- **دليل الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة** (الإصدار الأول، مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار: المجلس الأعلى للآثار، 2000).

- سامي محمد نوار، "دراسة تحليلية لسور القاهرة بالجزء الممتد من باب النصر إلى باب البرقية"، دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، ج1، (القاهرة، 2000).
- عباس الطرابيلي، خطط الطرابيلي: أحياء القاهرة المحروسة (القاهرة، 2003).
- عبد الرحمن زكي، "أسوار القاهرة وأبوابها من جوهر القائد إلى الناصر صلاح الدين الأيوبي"، مجلة المجلة، العدد 51 (مارس 1961م)، 41-32.
- عبد الرحمن زكي، قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة (القاهرة، 1960).
- عبد الرحمن زكي، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول (القاهرة، 1950).
- فريد شافعي، "قاهرة المعز كانت حصناً لا مدينة"، مجلة منبر الإسلام، العدد (9)، يناير 1965م، 121-119.
- ك. أ. س. كريزويل، العمارة الإسلامية في مصر: المجلد الأول الإخشيدون والفاطيون (939-1171م)، ترجمة عبد الوهاب علوب، مراجعة محمد حمزة الحداد (القاهرة، 2004).
- ليلى إبراهيم، محمد محمد الأمين، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية (648-923هـ) (1250-1517م) (القاهرة، 1990).
- محمد أبو العمام، "أسوار مدينة القاهرة وخططها: سور جوهر سنة 358هـ/969م"، حواشي المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، عدد 26 (2002)، 94-23.

3- المراجع الأجنبية

- Gaston Wiet, "A new Fatimid Cairo inscription", in *Asian Journal*, (1961), 13-20.
- George Daressy, "Inscriptions Hieroglyphiques Trouvees dans le Caire", *ASAE* 4, (1903), 101-103.

- Jean-Pierre Corteggiani, “The Site from the Primeval Era to the Arab Invasions”, in A. Raymond (ed.), *The Glory of Cairo: An Illustrated History* (Cairo, 2002).
- Lilian Postel, Isabelle Régen, “Annales Héliopolitaines et Fragments de Sésostri I Réemployés dans la Porte de Bab al-Tawfiq au Caire,” *BIFAO* 105 (2005), 229–293.
- Lilian Postel, Isabelle Régen, “Réemplois Pharaoniques à Bâb al-Tawfiq”, *BIFAO* 106 (2006), 193–218.
- Nicholas Warner, “The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls of Cairo: Missing Fragments”, *AnIsl* 33 (1999).
- Stéphane Pradines et Johannes Den Heijer, " Bâb al-Tawfiq: une porte du Caire fatimide oubliée par l’histoire", *Le Muséon* 121, Peeters, Louvain, 2008.
- Stéphane Pradines, Osama Talaat, “Les Fortifications Fatimides du Caire: Bab al-Tawfiq et L’enceinte en Briques crues de Badr al-Gamali”, *AnIsl* 41 (2007), 239–241.

